

"سأغني هذه الأغنية للإله.. عندما يأتي المخلص العظيم.. وهذه الفتاة البريئة القلقة الجميلة.. هيا تعال وحررها الآن " أغنية بابلية قديمة بصوت عجوز ولغة بابلية قديمة كان يغنيها.. ويحرك رأسه طرباً.. كان صوته رخيماً جميلاً.. لكن موسيقى الخلفية لم تكن متوافقة مع جمال صوته.. لقد كان يغني على صوت أغنام تسرح في المرعى.. أغنام يهش بعصاه عليها من آن لآخر.. لقد كان سعيداً.. ومن ذا الذي يمشي في مثل هذه الطبيعة الساحرة ولا يكون سعيداً.. نحن في مملكة آشور القديمة قُرب مدينة بابل.. أعظم مدينة رأتها عين إنس أو جن في التاريخ.. وهذا الراعي ذو الصوت الرخيم هو العجوز "إيشما".

"ولما يأتي المخلص العظيم.. ستحررين بالتأكيد "

قبل أكثر من أربعة آلاف عام.. كانت الأرض غير الأرض.. والسماء غير السماء.. كان "إيشما" يمكنه أن ينظر إلى البركة التي يمشي بجوارها فيرى كل أسماكها وأصدافها وكأنه ينظر إلى الطيور في السماء.. قبل أكثر من أربعة آلاف عام .. كل شيء كان طاهراً شديداً النقاء.. ويبدو أن "إيشما" العجوز قد قرر أن يستريح قليلاً.. فتوجه إلى شجرة قريبة اعتاد أن يترك عندها طعامه.. ولما وصل إلى طعامه نظر إليه بدهشة.. لقد كان مفتوحاً.

هؤلاء اللصوص الفقراء لن يتعلموا أبداً.. لو أنهم سألوه طعاماً لأعطاهم.. لكنهم يؤثرون السرقة.. تأبى نفوسهم مسألة الناس وترتضي سرقتهم.. لكن "إيشما" قد استغرب جداً لما أعاد النظر إلى الطعام.. فبرغم أن الكيس مفتوح.. إلا أن الطعام موجود والحليب موجود.. لكن الجبن مأكولة منه قطعاً صغيرة جداً.. والحليب ناقص نقصاً يسيراً لا يُسمِن ولا يُغني من جوع.. جلس "إيشما" وأكل وشرب واستراح في ظل الشجرة.. ثم قرر أن ينزل ليغتسل في البركة.. وكما يفعل الرعاة الذين يستحمون في البرك في كل الممالك القديمة.. خلع ملابسه كلها ونزل إلى الماء.

بينما "إيشما" العجوز يستحم.. كان ينظر إلى متاعه من آنٍ لآخر نظرات لا شعورية.. وفجأة أتى سرب من الحمام جميل المنظر وحط عند طعامه.. وأخذ الحمام ينقرون الجبن نقرات صغيرة ويملأون مناقيرهم الصغيرة بالحليب في مشهد غريب ثم يطفرون ويحيطون في مكان غير بعيد.. ويمكنون بضع دقائق هناك ثم يطفرون عائدين إلى طعامه.. فينقرون ويملأون مناقيرهم ثم يطفرون إلى المكان ذاته.

خرج "إيشما" من البركة ووارتد ملبسه البابلية القديمة.. لكنه لم يتجه إلى متاعه.. بل اتجه إلى ذلك المكان الذي تطير إليه الحمام بهذا الحماس الغريب.. وهناك وجد شيئاً اتسعت له عيناه العجوزتان في دهشة واندهار؛ وجد طفلة جميلة ابنة التسع سنوات لم ترَ عيناه بمثل جمالها.. لكن ليس هذا ما أدهشه.. ما اتسعت عيناه له اندهاراً هو أن الحمام كانت تحيط بها وتطعمها وتسقيها من مناقيرها لبنا.

كانت الطفلة تضحك وتحرك يديها بسعادة.. ولما اقترب منها "إيشما" ضحكت له ضحكة نزلت لبراءتها دموعه الحانية.. وب عقلية راع بابلي قديم كان ما يشاهده يعني شيئاً أسطورياً ما.. حملها "إيشما" برفق ورفعها إلى السماء.. وكانت الحمام تطير من حولهما بسعادة لم يجد لها تفسيراً.. نظر "إيشما" إلى عينيها الصغيرتين الجميلتين.. إنها المرة الأولى التي يرى فيها طفلة لديها هذه الرموش الرائعة.. قرر "إيشما" أن يأخذ هذه الطفلة معه ليربيها.. وقرر أيضاً أن يسميها اسماً أوحاه إليه الموقف.. سمّاها "محبوبة الحمام".. الاسم الذي كان لما ينطق بالبابلية القديمة يبدو مألوفاً.. كان يُنطق بالبابلية "سميراميس".

"عندما يأتي المخلص العظيم.. وهذه الفتاة البريئة القلقة الجميلة.. هيا تعال وحررها الآن"

* * *

إنه الاحتفال العظيم في بابل.. وعندما تحتفل بابل فزد على جمالها ألف جمال ومئع ناظريك.. عندما تلتقي الجبال الخضراء والسهول والأنهار الصافية بالرخام الأبيض والأزرق المميز للقصور البابلية والرسومات الكبيرة التي تغطي الجدران.. عندما يلتقي كل هذا بالأطفال الذين ينثرون أوراق الزعفران في الهواء والخيول التي ترقص والبشر الذين يحتفلون في أكثر لباسهم وصروحهم أناقة في التاريخ.. عندها تعرف أن هناك حدثاً مهماً جداً يمر عليهم.. عندما ترك الزعفران يغطي الأرض بهذا الشكل تعرف أن هناك مولوداً جديداً للملك "كوش" والملكة "أوداج".. مولود ذكر.. فهذه الاحتفالات لا تقام لو كان المولود أنثى.

هاهو المولود موضوع في الهودج تحيط به الولادات أو المايات كما يطلقون عليهم هنا (جمع مايا).. وهم الذين سهروا على رعاية الأم حتى تمت الولادة.. اقترب أكثر من الهودج وألق نظرة على هذا الصغير.. ستسمع أثناء اقترابك الكثير من الكلمات على طراز "يالروعة هاتين العينين" أو "إنه أروع طفل رأيته عيناى".. هذا يحفزك أكثر للنظر إلى الطفل.. هاهو أمامك.. الجمال مجسد في رأس صغير وعينين حادتين.. لكن هناك مشهداً آخر سيقلقك.. فمثلاً تحيط بهذا الطفل الولادات ذوات الأيدي الناعمة وأوراق الزعفران المتناثرة في الهواء.. فأنت ترى أشياء أخرى تحيط به.. ليست أشياء في الواقع.. بل كانت شياطين.. نعم شياطين.. كانوا يتسمون بشيطانية تجيدها كل الشياطين.. وكانوا يتلون شيئاً ما.. برغم كل الحقائق المطرزة يدوياً والمليئة بالودع الأزرق والثوم والموضوعة حول الهودج في كل مكان لطرد الأرواح الشريرة.. وبرغم أن المايات وضعن أصابعهن في الزعفران وبصموا به على جبهة الملكة "أوداج" لحفظ الطفل من الشياطين.

وفجأة سكّ الجميع وتكلم الشيخ الكبير أو الموهيل كما يلقبونه في بابل.. قال الشيخ :

- اليوم أتشرف وتتشرف البشرية ووتتشرف الأرض كلها بولادة الابن الذَّكر الذي سيحمل اسم الملك العظيم كوش.. الابن العظيم الذي قررت العائلة أن تسميه "زهاك".

وهنا ضج الجمع بصيحات السعادة.. لكن اسم "زهاك" لم يكن ذا معنى محبب على أي حال.. لقد كان الاسم يعني باللغة البابلية الثَّعبان اللاسع.. وعلى ذِكر الثَّعابين اللاسعة كان لضحكات الشياطين من بين أنيابها فحيح سعيد. فحيح شيطاني سعيد.

* * *

نظر الراعي العجوز "إيشما" إلى تلك التحفة الأنثوية النائمة التي بدا أنها نزلت من السماء إليه وحده.. تلك التحفة الصغيرة التي سمَّاها "سميراميس".. إنه مجرد راع فقير يجوع أكثر اليوم.. إن مكان هذه الجوهرة الصغيرة ليس بالتأكيد بين تلك الجدران المتهاكمة التي يعيش وسطها.. لابد أن الآلهة تدخر لجمالها مكاناً أكثر أناقة.. وهنا فاجأت دماغه العجوز فكرة عظيمة بشأن "سميراميس".

غداً سيُقام سوق "نينوى" العظيم.. والذي يتفق مع موسم الزواج الذي يُقام كل عام في بابل؛ حيث يجتمع الشبان والفتيات من كل أرجاء مملكة آشور العظيمة فينتقي كل شاب عروساً تناسبه.. ويشترى الكهول الفتيات الصغار لتربيتهن حتى يبلغن سن الزواج فيتزوجوهن أو يقدموهن لأحد أبنائهم كزوجات. نظر إلى عيني "سميراميس" الجميلتين وعقد العزم أن يمضي غداً إلى "نينوى".

ومضى "إيشما" العجوز حاملاً "سميراميس" الصغيرة على كتفه إلى "نينوى".. ولو تحدثت الأناقة يوماً ل قالت "نينوى".. كان "إيشما" قد لبس أفضل ما عنده لكنه بدا متسوّلاً بالطبع وسط هذا السوق الذي يتنافس فيه كل ذي جمال للحصول على كل ذات حسن.. كانت "سميراميس" تضحك ضحكتها الساحرة

التي خطفت أعين الكل وأثارت تساؤلاتهم عن هية ذلك المتسول الذي يحمل
لؤلؤة بين ذراعيه.

في نفس الوقت الذي كان "سيما" ناظر خيول الملك يمر في السوق.. كان يبحث
عن خيول جديدة يشتريها للملك.. وحانت منه نظرة التقطت فيها عيناه صورة
"سميراميس" الصغيرة.. نسي "سيما" الخيول ونسي الملك ونسي كل شيء
وتذكر شيئاً واحداً.. تذكر أنه عقيم لا يلد.. نظر مرة أخرى إلى الصغيرة.. شعر
بني كأنه الذهب.. كيف يصير البني ذهباً؟ هذا لا يمكن شرحه إلا لو رأيت شعر
هذه الفتاة.. عينان تختصران كلمة أثى إذا نظرت إليهما.. شفتان دقيقتان.. ترك
"سيما" كل شيء وتوجه إلى الراعي العجوز.. إلى "إيشما".

نظر "إيشما" إلى ملابسه الملكية في حذر.. وابتسمت له الفتاة الصغيرة في
سحر.. دقت له كل دقات الأبوة الباقية في قلبه.. وجرت لتلقي نفسها بين
ذراعيه.. التقطها ورفعها إلى السماء بسعادة.. وأخرج من جيبه كيساً من
العملات الذهبية كان سيشتري به أغلى خيل في السوق.. نظر "إيشما" إلى
الكيس بلهفة وسعادة.. ثم إنه قبل يد "سيما".. ومضى في طريقه يغني:

"ولما يأتي المخلص العظيم.. ستحررين بالتأكيد"

* * *

كانت هناك منصة كبيرة دائرية ذات رخام أبيض وزهبي.. تحيط بها التماثيل البابلية الموحية.. وفي منتصف المنصة نافورة مزخرفة تسحب الماء من النهر وتضخه بشكل خيالي لا يمكنك أن تصدق أنه كان موجوداً بهذه الدقة قبل أكثر من أربعة آلاف عام.. غصُ بصرك عن كل الفتيات العاريات الممددات أو الواقفات هنا وهناك بجوار فتى في غاية الوسامة يجلس وسطهن بهدوء.. انظر إلى قوة وفتوة ووسامة هذا الفتى.. انظر إلى سحر الطبيعة وسحر البناء البابلي من حوله.. أنت في أحد القصور الملكية بابل.. وهذا الوسيم هو "زاهاك" ابن الملك كوش بعد مرور مئة سنة على ولادته.. لا ترفع حاجبك في استغراب.. فأعمار البشر حينها كانت ما بين خمسمئة وألف.

ها أنت تدير عينيك يمينا ويسارا لتملأهما بجمال هذا المنظر الساحر.. إن أجمل منتجج في هاوي يبدو بشعا مقارنة بهذا السحر.. لكن عينك توقفت فجأة على شيء أفسد استمتاع عينك؛ رجل عجوز كسيح.. أكثر أسنانه ليست في فمه.. تخرج من ذقنه شعرات معدودة مجمدة طويلة بشكل عجيب لم تره في أشد الصور غباء.. يرتدي عباءة سوداء ممزقة من هنا وهناك.. وهاهو يقترب من المنصة بخطوات عرجاء.

صعد الرجل العجوز إلى المنصة الرخامية.. قابلته نظرات امتعاض أنثوي من العاريات.. ضيق "زاهاك" عينيه الوسميتين ونظر إليه بهدوء.. وبادره بلهجة ساخرة واثقة:

- كيف دخلت هنا أيها المسخ الأجرب؟

نظر له العجوز بعينين فيهما بريق وحيوية مرييين.. وقال بصوتٍ هو أقرب لصوت الحية:

- مررت بهرجتي هذه عبر مسوخ جرب كثيرين يرتدون قلنسوات مضحكة ويقفون كأن على كروشهم الطير.. يحرسون ما يلقبونه

بابن "كوش" العظيم.. فتملكني فضول لرؤية ابن "كوش" هذا.. وإذ
بي أجدّه مستقيماً كأنه البغل وسط الإناث حتى صار واحدة منهن.. لا
سيف يُسن.. ولا رمح يُعد.

وضعت العاريات أيديهن على قلوبهن.. وتحفز الحرس حول "زاهاك"..
وتوجهت كل الأنظار إلى "زاهاك" الذي قام معتدلاً من مجلسه بسرعة كالمارد
واختطف أحد الرماح من أحد خُراسه وألقاه بيد خبيثة حتى انغrust في قلب
العجوز الذي سقط كالحجر.. قال "زاهاك" بغضبٍ شديد:

- ألقوا هذا الحثالة إلى الأسود.. واعتذروا لها عن هذا اللحم العفن الذي
سنطعمها إياه اليوم.

حمل الحراس العجوز الذي بدا وكأنه مات من فوره كالجلمود وألقوا به إلى
حفرة قريية واسعة مزينة جدرانها برسومات الأسود الماشية التي تعتبر رمزاً
من رموز الحضارة البابلية.. وهي أيضاً مليئة بالأسود الحقيقية التي تترأر في
غضبٍ جائع الأسود التي بدا وكأنها مئة أسد جائع مزقوا جثة العجوز قبل حتى أن
تحط على الأرض.. قال "زاهاك" بغضبٍ:

- ألقوا حراس المنصة كلهم وراءه.. يبدو أن أبي "كوش" العظيم لا يعرف كيف
يختار رجاله.

غادر "زاهاك" المنصة واتجه إلى داخل القصر البابلي العظيم.. ومشى فيه
بغضبٍ هادر يُعنف كل من يجده أمامه من الحراس.. حتى وصل إلى غرفته
المزين بابها بالعديد من الألوان والزخارف.. فتح بابها وأغلقه بغضبٍ.. ثم إنه..

- لم أعد أذكر أن لك اسماً ما يابن "كوش" العظيم.

نظر "زاهاك" إلى مصدر الصوت بعينين متسعيتين.. كان رجلاً أكثر من نصف
أسنانه مفقودة.. ولديه عشر شعرات غريبات في ذقنه العجوز.. يرتدي عباءة
سوداء ممزقة أطرافها.. ولديه صوت أشبه ما يكون بصوت الحية.

* * *

هانحن مرة أخرى في بابل.. ولكن بعيداً عن القصور الملكية.. في ضواحي المدينة التي لم تكن مبانيها العادية أقل جمالاً من قصورها.. كان هناك رجل بملابس تبدو ملكية يمتطي صهوة جواد أصيل ويحيط به الكثير من الرجال ذوو الملابس المتشابهة والجياد المتشابهة.. كان هذا هو "أونس" مستشار الملك.. وقد أتى للمدينة بفوج ملكي حتى يُبلغ أهلها بأوامر الملك التي لا تنتهي.. كان الأهالي محتشدين أمامه في قلق وممل.. وكان "سيما" ناظر خيول الملك واحداً من المحيطين بالمستشار "أونس".

ومن بين جنّات صمت الأهالي ومللهم شقّ الهواء صوت جوادٍ أتٍ من بعيدٍ بسرعةٍ مجنونة.. التفتت إليه رؤوس كل الأهالي في دهشةٍ وتبعثهم رؤوس الوفد الملكي في غضب.. وتحولت كل دهشةٍ إلى إعجابٍ وكل غضبٍ إلى دهشة.. لقد شقّ جمود المشهد جواد أسود قوي يمتطيه ما بدا في الأفق وكأنه فارس مغوار.. وليس هذا ما غيّر تعابير القوم بهذا الشكل.. لقد تغيرت تعابيرهم لأن القادم لم يكن فارساً.. بل كانت "سميراميس".

- هل فاتني الشيء الكثير؟

قالتها بمرح وثقة لا يجتمعان إلا لديها.. دعك من الصمت الذي قابل عبارتها.. دعك من نظرات الأهالي إلى بعضهم والتي تحمل معاني أشبه بـ - انظروا إلى هذا الفرس الذي يمتطي فرسا - .. دعك من كل هذا وانظر إلى الفوج الملكي.. وتحديدًا إلى "أونس" الذي سقط منه لباس الصرامة الذي كان يضعه على وجهه.. سقط إلى أسفل قدمي جواده.. وسرحت عيناه في عالم لم يره من قبل.. تاهت عيناه في زحام من الجمال والركة والأنوثة و...

- كيف تركضين بالفرس بهذا الجنون في ضواحي المدينة يا

"سميراميس"؟ وكيف تتخلفين عن حشد الملك؟

- لقد أمرتني أن أحاول ترويض الحصان "ليجيش" يا أبي.. وهاهو أمامك

كالمهر.

قالتها بنظرة أنثوية إلى المستشار "أونس" الذي كانت هذه النظرة كافية لتقضي على كل ما تبقى من رزائته.. فقال بصوت خافت للحشد :

- فليصرف كل منكم إلى متاعه.

تحرك الحشد مستديرين مهمهمين واستدارت "سميراميس" بجوادها لكن صوت "سيما" الهادر أوقفها قائلاً:

- "شميرام" تعالي إلى هنا وقبلي يد المستشار واعتذري له.. فقد أفسد قدومك حديثه.

نزلت "سميراميس" من على صهوة جوادها كفارسة حقيقية.. وتوجهت ناحية "أونس" ناظرة إليه تلك النظرة الأنثوية إياها.. والتي زلزلته هذه المرة فبدأ وكأنه هو الذي أخطأ ويريد الاعتذار على شيء ما.. مدت "سميراميس" يدها الجميلة إليه ببطء حتى أمسكت بيده ببطء.. لكن يده جذبت يدها فجأة إليه ليقبل هو يدها ويقول في خفوتٍ .

- - سيدة شميرام" .. أن تقبلي أن تكوني لي زوجة هو الطريق الوحيد الذي سيجعل قلبي يسامحك على ما فعلته به.

نظرت "سميراميس" إلى "سيما" الذي كان ينظر لها نظرة أبوية مبتسمة مشجعة.. ثم نظرت إلى "أونس" .. رجل قوي ذو منصب هو الأعلى في الدولة.. تنحى قلبها جانباً وتحدث عقلها بالموافقة.. وأصبحت "شميرام" في الليلة التالية زوجة "أونس" .. المستشار الأعلى للملك "كوش" العظيم.. ملك المملكة البابلية كلها.

* * *

ورغم أن عيني "زاهاك" الوسيم قد اتسعتا لثانية.. إلا أنهما غضبتا في الثانية التالية واستعاد قلبه جأشه وتحفزت عضلات ساعديه وهجم على العجوز البشع هجمة ثائرة.. لم يتحرك العجوز من مكانه قيد أنمله ولم تطرف عيناه طرفة.. بل كان ينظر بسخرية إلى هجمة "زاهاك" التي مدَّ فيها يده ليمسك بتلابيب العجوز ويرديه حيث يرديه.. لكن هجمة "زاهاك" تلك لم تنته إلا بعظيم اتساع في عينيه.. وبمنظرة إلى العجوز غير مصدق لما يراه.

لقد مرَّ من العجوز كما يمر من الهواء.. فالتفت بحدة إلى العجوز ليجده واقفاً في موضعه ناظراً بعينيه الساخرتين إليه نظرة هزت كيانه.. أي إنسان هذا.. العجيب أن ردة فعل "زاهاك" لم تكن مرتعبة بقدر ما كانت متحيرة.. ثم حسم أمره فجأة وتوجه بسرعة إلى المشعل الذي يضيء الغرفة بالنار.. وحمله بيد واحدة ثم ألقاه بكل عزمه على العجوز الواقف.. ورأى بأَم عينه المشعل يمر من بين جسد العجوز ويسقط على الأرض.. وهنا تحولت نظرة العجوز إلى نظرة مخيفة وسَّع فيها عينيه بغضب ثم نظر إلى المشعل نظرة واحدة أطفأت المشعل مكانه.

بدأ عقل "زاهاك" البابلي القديم يفكر غير عالم ماذا يصنع بالضبط.. لكن العجوز كان هو من تحرك هذه المرة.. في أقل من طرفة عين كان عند المشعل يحمله.. وفي الطرفة الثانية حدث ما جعل "زاهاك" يتراجع تلقائياً.. لقد أصبح العجوز عجوزين ثم ثلاثة ثم عشرة.. ثم تضاعف عدد العجزة حتى أصبح بعضهم يطير في الهواء.. وكلهم يحملون المشاعل.. ثم ألقوها كلهم برمية رجل واحد على "زاهاك" الذي تراجع فتعثرت قدمه فوقع على ظهره.. واشتعلت النار في الغرفة حول "زاهاك" الذي لم يدر كيف يهرب.. كان العجوز ينفذ إلى عقل "زاهاك" ويقرأ ما يفكر فيه.. والعجيب أن كل ما كان يملأ عقل "زاهاك" هو ثورة الغضب والإصرار على هزيمة هذا الكيان الذي لا يدري له تعريفاً.. وكان

هذا يُعجب العجوز.. وفجأة تحول أكثر من خمسين عجوزًا إلى عجوز واحد يتقدم إلى "زاهاك" وسط النيران ويقول له بصوت كفحيع الثعابين :

- لا تزعج نفسك بالتفكير بعقلك القاصر يا ابن "كوش".. فلا قبل لك بي.

- رفع "زاهاك" ذراعه أمام عينه محاولاً تخفيف وهج النيران عليها وقال:

- من.. من أنت يا هذا؟

قال له العجوز ببطء حاد :

- أنا "لوسيفر".. أمير النور يوم خلق النور.

وفجأة انطفأت النيران وكأنها كانت وهماً قاسياً.. فأكمل "لوسيفر" :

- أنت المختار يا ابن "كوش".. أنت من اختاره نوري وبصيرتي.. بي وحدي ستكون أعظم أهل الأرض.. وبي وحدي ستتعلم سر الـ "ماجي".. وبي وحدي ستملك الأرض بإنسها وجنّها وكنوزها.

همّ "زاهاك" أن يتحدث لكن "لوسيفر" أكمل حديثه :

- ليس سواك يصلح ليكون جبار الأرض.. ليس سواك يصلح أن يقود هؤلاء النعاج.. ليس لسواك أن يعلم سر الـ "ماجي".. فلو أردت أن يحصل كيانك الفاني على كل تلك القوة التي لم أرك منها سوى مثقال ذرة.. انتتني عند جبل دنباوند.. واسأل الصبية هناك عن "لوسيفر".. وسيأتون بك إليّ.

ثم تلاشى العجوز من أمامه كأنه لم يكن.. تاركاً "زاهاك" في صدمة.. صدمة ستغير حياته كلها فيما سيأتي من الأيام.

* * *

جبل دنباوند.. في ظلمة من الليل كالحة.. وشاب وسيم حائر يمشي على سفح الجبل المظلم باحثاً عن الصبية.. وأي صبية سيكونون في مكان كهذا.. إنه يكاد ألا يرى يديه.. ولا يسمع إلا همس الأرض.. ومن آن لآخر تنهياً له ضلال شبه بشرية تدهن صخور الجبل.. بدأت نفس "زاهاك" الملولة تراوده.. فصاح بأعلى صوته:

- أيها العجوز.. ها أنا ذا في دنباوند.. أين تراك تكون ؟

ولم يسمع رداً.. سوى صدى متكرر أضاف إلى تلك الأجواء الساكنة لمسة مقلقة.. ثم بدا له أن هناك شيئاً ما يتحرك بحذر.. ثم لم يلبث أن شعر بأنه ليس شيئاً واحداً.. بل أشياء.. تتحرك نحوه بحذر صانعة بأقدامها صوتاً ما على الأرض.. ضيق "زاهاك" عينيه الوسميتين ليزيد من حدة ناظريه.. ثم رآهم.. لم ير أجساداً بل عيوناً.. عيون تلمع كعيون الذئاب.. كانوا في كل مكان.. أمامه.. وعن يمينه وشماله.. عيون لا تبدو أنها أليفة.. والعجيب أن "زاهاك" لم يشعر بالخوف ولا بالقلق.. بل إنه صاح فيهم بصوت قوي صياح المعاتب :

- أين هو "لوسيفر"؟ أين من يطلق على نفسه أمير النور ؟

وهنا بدت له أجسادهم الصغيرة.. كانوا حوالي مئة يحتشدون حواليه.. ينظرون ناحيته بنظرة جامدة تشعر فيها بخاطر من الدهشة.. كانوا يبدون وكأنهم حشد من الأطفال الحائقين على شيء ما.. ملبسهم أسود وشعورهم سوداء طويلة.. التفتوا جميعاً بلا كلمة ومشوا كلهم باتجاه الشمال.. وتبعهم "زاهاك" متوجساً.. حتى أوصلوه إلى ما يشبه الغار في سفح الجبل.. ثم تفرقوا إلى كتلتين صائعين بينهم طريقاً.. نظر لهم "زاهاك" ثم مشى وسطهم إلى الغار حتى دخله.. وكما وعده "لوسيفر".. كان بانتظاره.

لم يكن عجوزاً.. ولم يكن أعرج.. بل كان "لوسيفر".. ليس له وصف آخر سوى أنه "لوسيفر".. على كرسي كبير كان يجلس.. يلفه الظلام.. رغم وجود مشعل

أو مشعلين يبعثان نورًا خافتًا للغاية.. وهنا دبَّ شيء من الرعب في قلب "زاهاك".. فالكيان الجالس أمامه لم يكن إنسيدياً.. وإن كانت له الهيئة التشريحية للإنس.. لم يتبين وجهه جيداً لأن الظلام كان يخفيه.. ليست هذه يد بشر.. وليست هذه أصابع بشر.. ولا أظافر بشر.. وما هذه الأكتاف بأكتاف بشر.. ما هذا الشيء بالضبط؟ هل هو الرب على عرشه؟ لم يستطع بعقليته الباطنية القديمة أن يستنتج أنه يقف على بُعد خطوة أو خطوتين من الشيطان.. "لوسيفر".. لم يكن يدرك أنه يقف أمام "إبليس".

* * *

بدأت الأمور تتضح ببطء؛ الوجه الذي كان يلفه الظلام اقترب من مجال الرؤية وبدأت تسقط عليه ظلال المشاعل المتراقصة.. تحفرت خلايا "زاهاك".. ثم تحول هذا التحفز إلى الدهشة.. فذلك الكيان الذي يفترض أنه "لوسيفر" كان يملك شعراً طويلاً جداً يمس الأرض.. وهذا الشعر ينسدل على وجهه غزيراً يخفي ملامحه تماماً؛ حتى لا تدري هل أنت أمامه أم خلفه.. قال "لوسيفر" بصوت هادر كالصخر:

- لقد اخترتك يا "زاهاك" من بين رجال الأرض كلها.. فبرغم أنك تستمرىء حياة الدعة إلا أن لديك قلباً ميتاً لا يخاف.. قلب شجاع.. وروح متمردة.

أجفل "زاهاك" قليلاً وشعر بعرق يُندي جبينه من هول الكيان الجالس أمامه ثم قال بصوت خافت:

- اخترتني من أجل ماذا؟

أجاب "لوسيفر" بغضب لا يدري "زاهاك" له سبباً إلا أن يكون صوته الهادر يوحى بالغضب:

- لتملك بني الإنسان.. لتكون أول بشري يتعلم سر الـ "ماجي".. ولكن..

توقف "لوسيفر" للحظات ثم قال:

- يجب أن نضع قلبك الميت هذا طور الاختبار.. فسر الـ "ماجي" العظيم لو ناله الرجل الخطأ.. فإنه يموت من فوره.

أشعلت كلمة الاختبار في نفس "زاهاك" شيئاً ما فقال:

- ماهو هذا الـ "ماجي" الذي لا تكف عن ترديده.. وماهو هذا الاختبـ...

قاطعته "لوسيفر" فجأة :

- أن تراني ..

لم يفهم "زاهاك" شيئاً؛ فهمم بالحديث إلا أن "لوسيفر" قال بصوته الهادر في لهجة مخيفة:

- أن تراني ولا ترتعد فرائصك.. فإن كشفت لك عن وجهي وطرفت عينك طرفة خوف واحدة سأقتلك على الفور.. وإن رأيتني ولم تجفل. فإن سر الـ "ماجي" من حقلك وحدك.. وسيطوى لك العالم وتخضع لك نفوس البشر كلهم.

سكت "زاهاك" سكوتاً طويلاً ثم قال :

- فلتكشف عن وجهك إذن يا هذا.

وبسرعة مفاجئة انحسر الشعر عن وجه "لوسيفر" الذي اعتدل في مجلسه مقرّباً وجهه الشيطاني من "زاهاك".. كان "زاهاك" في تلك اللحظة يشاهد أشد وجوه الأرض بشاعة وإرعاباً.. وجه "إبليس".. زاد العرق على جبينه.. وشعر بأن ذرات الهواء تهتز من حوله من شدة بشاعة ذلك الوجه.. خفق قلب "زاهاك" خفقة سقط فيها إلى أسفل سافلين.. لكنه حافظ على ثبات عينيه.. وأخذ يفكر في أشد الأمور جمالاً وبهجة ليشغل ذهنه عن بشاعة ذلك الكيان.. ولكنه مع مرور الثواني ازداد الخوف في قلبه من هول ما يرى.. لكنه استعاد رباطة جأشه بشجاعة عجيبة وقال بصوت حاول أن يخرج ثابِتاً غير متهدّج:

- أي شيء لعين أنت بالضبط؟

تحدث "لوسيفر" فتضاعفت بشاعة وجهه فقال :

- أنا شيطان مرید.

كان ذلك اللقاء هو أول لقاء بين إنس و جن في تاريخ الأرض.. وقد حدث في بابل في أول حضارة بشرية بعد طوفان "نوح".. أصبح "زاهاك" يتردد على ذلك الغار في كل ليلة.. وعلمه "لوسيفر" سر الـ "ماجي" .. والـ "ماجي" بلغة أهل بابل تعني السحر.. فكان "زاهاك" هو أول ساحر مشى على ظهر الأرض.. أما التاريخ فلقبه بلقب اشتهر جدًا حتى ظنه الناس اسمه الحقيقي. اشتهر "زاهاك" في التاريخ باسم "النمرود"؛ "الملك النمرود".

وبعد مرور بضعة أيام على حادثة اللقاء الشيطاني تلك.. نصب "زاهاك" فخًا لأبوه "كوش".. حفرة متوسطة العمق مثبت في قاعها أكثر من خمسين رُمحًا متجاورًا.. حفرة مغطاة بأوراق الشجر.. كان هذا هو أول فخ يُنصب في التاريخ.. كان الفخ الذي قتل الملك "كوش" وحول جسده إلى مصفاة بشرية.. الفخ الذي أوصل إلى العرش من بعده ملكًا كان هو الأكثر دموية وجنونا ليس فقط بين ملوك بابل.. بل بين ملوك العالم كله.. ابنه "زاهاك" .. "الملك النمرود".

أن تكون ملكًا جبارًا فهذا مفهوم.. أما أن تكون ملكًا جبارًا متسلطًا وساحرًا عتيًا فاجرًا.. فقد صنعت شرًا مستطيرًا لا قِبَل لأهل الأرض به.. كان "النمرود" هو كل ذلك.. كان أول وضع تاجًا على رأسه.. وفكرة التاج نفسها اقتبسها من ملوك الجن.. وقد صنع لنفسه تاجًا ذهبيًا عظيمًا.. وخاتمًا ذهبيًا كبيرًا.

يذكر التاريخ للنمرود أنه قال لما وضع التاج على رأسه :

- نحن ملوك الدنيا.. المالكون لما فيها.

ولم يدِر أحد معنى كلمة "نحن" حتى هذه اللحظة. .

* * *

إنها الحرب على مملكة "بكتيريا".. لقد بدأ عصر الحروب فور جلوس "النمرود" على العرش.. ورغم أن المستشار الأعلى "أونس" كان عريساً جديداً إلا أن طبول الحرب لما دقت انتزعته من سريرته انتزاعاً.. ولم تنتزعه وحده.. بل انتزعت زوجته معه.. الفارسة "سميراميس".. والتي كانت قد أظهرت فروسية وذكاء لا يملكهما أعتى الفرسان.. نزلت "سميراميس" إلى الحرب مع زوجها جنباً إلى جنب.. والحقيقة أن مظهرهما كان عجيباً كعروسين.. كانت "سميراميس" قائدة كتيبة عسكرية كاملة.. فائقة الجمال.. جمال من الطراز الذي يذعن له الآخرون رغماً عنهم.. لها عينان ساطعتان بالرغم من كثافة رموشهما.. عينان يشع منهما وهج عبقرية قائد يستطيع أن يأمر جيشاً ويؤسس إمبراطورية.

أظهرت "شميرام" في تلك الحرب دهاءً عسكرياً فاق كل الحدود.. دهاءً أسقط وحده مملكة "بكتيريا" الحصينة.. ووصل الخبر إلى الملك "النمرود" الذي ذهشَ دهشة حقيقية من أن تفعل فتاة واحدة كل هذا.. فاستدعاها لمكافأتها.. وكان أول لقاء بين الملك النمرود وبين "سميراميس".

كان الملك "النمرود" جالساً على عرشه يُعَنِّف مستشاريه كعاداته.. وكان منهم المستشار "أونس".. وفجأة دخلت "سميراميس".. بكل جمالها وثقتها وقوتها دخلت.. رافعة رأسها راسمة على ملامحها تعبيراً عسكرياً صارماً بدا عجيباً على ملامحها الجميلة.. وفور أن رأت "زهاك" شعرت بخفقة في قلبها.. ساءلت قلبها عن تلك الخفقة.. أثراك خفقت لأنك رأيت الملك الأعظم للبلاد لأول مرة.. لكنها رفضت هذا.. فهي ليست من الطراز الذي يهتز لرؤية أحد.. في نفس الوقت كان "زهاك" يحدث أحد مستشاريه بعصية.. ثم لما شعر بحضور شخص ما التفت إليه بحدّة.. وعندما رآها قام من على عرشه.. وكان يسائل نفسه أثناء قيامه.. لم يقوم ؟.. إنه ليس من الطراز الذي يقوم لحضور أحد.. التقت عيناها لقاء حجب عن مجال رؤيتهما أي كيانات أخرى سواهما.

اقتحمت المجال نظرات أخرى آتية من شخص آخر يرى المشهد.. نظرات غاضبة موجّهة من "أونس".. زوجها.. الذي لم تسره تلك النظرات التي عجز الطرفان عن إخفائها.. ثم اقتحمت المجال نظرات أخرى ترى المشهد بعين شيطان.. نظرات "لوسيفر".

* * *

لم يمضِ وقتٌ طويلٌ إلا وكان يمكنك أن ترى المستشار "أونس" وهو يسقط صارخاً من فوق قلعة النمرود.. بينما يقف النمرود فوق القلعة ناظراً إليه بسخرية.. ثم أمكنك أن ترى النمرود يتزوج من "سميراميس" زواجا اهتزت له أرجاء المملكة البابلية اهتزازاً لم تهز قبله مثله ولا بعده.. حتى استمرت الاحتفالات ثلاثة أيام متواصلة.. ووُزعت الكثير من الكابرا (حقائب الهدايا) المليئة بالملبس والحلويات البابلية الأخرى.. واجتمع الشمس والقمر كما تقول الأساطير.. الشمس هو إله الشمس النمرود والقمر هي "سميراميس".

زادت قوة مملكة النمرود بعد انضمام "سميراميس" بكل دهائها إليه.. انضم الدهاء العسكري إلى القسوة والطفیان إلى سطوة السحر.. وظلت مملكة النمرود تغزو الممالك التي تجاورها حتى أصبح النمرود ملك الأقاليم السبعة.. ولم يكتف بذلك.. بل تطلع إلى مزيد من السلطان.. أراد أن يغزو السماء.. فجمع ستمئة ألف رجل من كافة ممالك السبعة وأمرهم أن يبنوا برجاً شاهقاً لا يصعد المرء إلى قمته إلا بعد مسيرة عام كامل.. برج يتجاوز السحاب ارتفاعاً.. وبالفعل بدأ العمال والمهندسون وحتى الجن في بناء ذلك البرج العظيم.. ولم تمضِ عدة سنوات إلا وتم بناء أول عجيبة من عجائب الدنيا السبع.. برج بابل.. ذلك البرج الذي كان قصر النمرود وعرشه على الأرض.

* * *

كان النمرود نائماً في أحضان الجميلة "سميراميس" التي كانت تسمح بيدها على شعره في حنان لم تعهده في نفسها.. لكن النمرود وقتها كان في شأن آخر.. كان يرى خلماً عجيماً.. تراءى له مابداً وكأنه فارسٌ على صهوة جواده يطير في السماء عند الأفق.. ورأى نفسه يطير في السماء مواجهاً لذلك الفارس.. أعاد النظر مرة أخرى إلى السماء فرأى الفارس قد اختفى وحلَّ محله كوكب متألّق.. نظر إلى الموضع المواجه للفارس والذي رأى نفسه فيه.. فلم يجد نفسه بل وجد الشمس.. ثم اختفت الشمس فجأة من السماء وبقي ذلك الكوكب المتألّق.. أعاد النظر مرة أخرى فرأى الفارس في موضع الكوكب المتألّق يغير اتجاهه الأول ويقترب بسرعة رهيبية من الأرض هاجماً بفارسه على النمرود نفسه ففرع وصحا من نومه صارخاً فجأة لتقابلته عينا "سميراميس" الجميلتين القلقتين ويدها الحائيتين على جبينه.

أحضرت "سميراميس" للنمرود أعلم أهل بابل ليفسروا له ذلك الخلم.. وكانوا خائفين من التصريح بالتأويل الحقيقي لذلك الخلم.. ثم حسموا أمرهم في النهاية وأخبروه.. قالوا له إن هناك مولوداً سيولد على هذه الأرض عمّاً قريباً.. وأن هلاكاً سيكون على يديه.

ثار النمرود ثورة رهيبية.. وأمر بقتل كل المواليد في جميع الأقاليم السبعة.. ونزل جنوده يفتحمون البيوت ويقتلون الأطفال. في تلك الأيام بالضبط وُلِدَ نبي الله "إبراهيم".. وأخفته أمه من جنود النمرود.. حتى كبر وصار شاباً.. وكان شعب بابل يعبدون الكواكب ويصنعون لها أصناماً يتضرعون إليها.. ومن تلك الكواكب الشمس والقمر؛ فالشمس هي المعبود الأعلى وهو الملك النمرود والقمر هو المعبود التابع وهي "سميراميس".. أما "النمرود" فقد كان ولاؤه للشيطان وحده.

كان قد فسق في تلك الأيام وفجر وتجبر وحكم الناس بالحديد والنار.. بدأ "إبراهيم" يدعو الناس ليعبدوا إلهاً واحداً.. ويحاول إقناعهم أن أصنامهم تلك لا

هي بضارة ولا نافعة.. وحدثت القصة الشهيرة في عيد الربيع.. ذلك العيد الذي حطّم "إبراهيم" فيه أصنام بابل المصطفة في معبد "أور" وعلق فأسه على صنم شديد الضخامة منهم يدعى "مردوخ".. ولما عاد القوم من عيدهم وجدوا كل أصنام آلهم قد تحطمت ماعدا واحدا.. وذلك الواحد هو "مردوخ" العظيم.. الذي كان يقف في رأس المعبد بشموخ ويحمل فأسا على كتفه.

ضجّ القوم وتذكروا كراهية "إبراهيم" لأصنامهم فاستدعوه وسألوه فأجابهم الجواب الشهير..

- بل فعله كبيرهم هذا.. فاسألوه إن كان ينطق.

ثار القوم وأوصلوا الخبر إلى إلههم الملك النمرود.. وكانت المواجهة الشهيرة بين النمرود و"إبراهيم".

- من هو ذلك الإله الذي تعبد به يا "إبراهيم"؟
- إنه الإله الذي يُحيي ويميت .
- أنا أحيي وأميت.. أضرب عنق سجين لدي فأُميته وأترك الآخر فيعيش.
- إلهي يُخرج الشمس من المشرق.. فأخرجها أنت من المغرب.

فبُهِت "النمرود" ولم يدِرْ ما يقول.. وأمر بقتل إبراهيم قتلاً يكافئ جريمته في حق الآلهة.. أمر بأن توقد نار هي أعظم نار أوقدت على ظهر الأرض وأن يلتقى فيها "إبراهيم".. وظل أهل بابل يجمعون الحطب لإيقاد تلك النار شهراً كاملاً.. ولما أوقدوها ناراً عظيمة أصبح نورها يَرى من آخر المدينة.. ثم ألقوا "إبراهيم" فيها بالمنجنيق.. وتركوها أياماً وليالي حتى انطفأت.. فهرعوا إليها ليجمعوا رماد الرجل الذي تجرأ على الآلهة.. فوجدوه واقفاً هنالك وليس به خدش واحد.. غضب النمرود غضباً شديداً.. لكنه غضبٌ مكتومٌ هذه المرة.. غضب موجه ناحية حليفه الذي وعده بالقوة والملك.. غضب على "لوسيفر".

* * *

كان الشيء التالي الذي فعله النمرود هو أعجب شيء يمكن أن يقوم به بشري.. وربما استحق لقب النمرود بسبب فعله لهذا الشيء وحده؛ ذهب النمرود إلى جبل دناوند وتحديداً إلى ذلك الغار الذي كان يتردد عليه بين الفينة والأخرى ليتعلم السحر.. غار "لوسيفر"..

- أين كانت تلك القوة المطلقة التي تدعي.. كيف لنار مستعرة ألا تحرق إنسياً من لحم ودم؟
- لأنه شيطان مثلي.
- حقاً؟ أتقصد شيطان أعظم منك؟ ثم أننا كلنا نعرف "إبراهيم" ونعرف أباه "آزر" النحات.
- ليس لك أن تعرف كل ما أعرف.. فلست أنا وأنت إلا حلفاء بحلف أنا السيد فيه.. وما أنت ببالغ مبلغ.. فما أنت في النهاية سوى بشري تجوع وتبول وتموت.
- أين هي القوة؟ لقد صعدت إلى السماء فوق السحاب ببرجي ولم أجدها.. وهبطت معك إلى أسفل سافلين ولم أجدها.
- القوة هي أنك ملك الأقاليم السبعة.. ولا يوجد بشري إلا ويرتعد عند ذكر اسمك.. وعائلات كاملة من الجن تأتمر بأمرك.
- كلهم إلا واحد.. "إبراهيم".. ما الذي يملكه ولا أملكه أنا ولا تملكه أنت
- هو فقير لا يملك شيئاً إلا الحيلة.. والحيلة هي التي أنجته من النار
- أنت كاذب.. كاذب وحقير.. وأقسم أنني قاتلك وممزقك إربا.. فور أن أجد تلك القوة

أعلن تمرده على حليفه "لوسيفر".. فبعد أن تمرد النمرود على والده بقتله.. وتمرد على الله بالكفر وادعاء الألوهية.. وتمرد على الكواكب التي يعبدها قومه بتجاهله الكامل لها.. وتمرد على كل الأعراف والأخلاق بطغيانه ودمويته وتجبره

في البلاد.. بعد كل هذا أعلن في النهاية تمرده على من علمه السحر.. أعلن تمرده على "إيليس".. فالنمرود من التمرد.. وكان "زاهاك" هو أمير التمرد بلا منازع في تاريخ الأرض.

* * *

- سيدي "زاهاك".. وصل الطباخ الجديد للملك بعد أن أمرتنا أن نطرد الطباخ الأول

- دعه يدخل.. ولينه حديثه سريعا

كان "النمرود" يناقش أمرا ما بجدية مع مستشاريه.. حتى شعر بوقع خطوات هائلة.. رفع رأسه لينظر إلى من سيعرف بعد قليل أنه الطباخ الجديد.. لكن عيناه اتسعتا بوضوح لاحظه كل المستشارين.. فالطباخ الجديد كان شكله يبدو مألوفا جدا.. عجوز.. أعرج.. شبه معدوم الأسنان.. عباءة سوداء ممزقة.. وابتسامة ساخرة زادت منظره بشاعة.

قال العجوز بصوت كالفحيح الساخر :

- أتيت لأقدم لك يا سيدي عينة مما تستطيع يداي عمله .

وتقدم العجوز مقدما للنمرود طبقا ذهبيا عليه بعض الطعام المطهو.. قال له "النمرود" بصوت واضح القلق :

- لاداعي للعينات ياهذا.. أنت مرفوض

ابتسم العجوز ابتسامة بانث فيها أسنانه المبعثرة ببشاعة وقال :

- إنني أعتذر منك ياسيدي.. ولتسمح لي أن أقبل منكيبك احتراماما وخضوعا لحضرتك.

تقدم العجوز من "النمرود" بخطوات خاضعة ذليلة حتى وضع رأسه في الأرض تحت قدميه.. ثم قام ببطء وقبل منكب النمرود الأيمن.. ثم الأيسر.. ثم استأذن وانصرف إلى حال سبيله.

- لماذا رفضته يا سيدي إن طهوه رائع جدًا

لم يرد "النمرود" عليه.. كان شاردًا.. هل يعني "لوسيفر" بهذه الحركة الاعتذار.. أم أنه يعني شيئًا آخر.. قام "النمرود" من مكانه وتوجه إلى غرفته عند زوجته ومعشوقته "سميراميس" كعادته إذا حزبه أمر.. فدهاءها يزن جبل دنباوند ذهبًا ومثله معه.. وفور أن دخل "النمرود" إلى غرفته ونظر إلى جمال "سميراميس" وهي تصفف شعرها الذهبي البني الطويل.. حتى شعر فجأة بألم رهيب في منكيه يصاحبه انقباض كأن عظامه قد انطبقت على بعضها.. صرخ "النمرود" وسقط على الأرض.. التفتت إليه "شميرام" وهرعت إليه.. لكنها توقفت مكانها نازرة إلى الجنون الذي بدأ يحدث أمام عينيها المتسعيتين.

فمن منكبي "النمرود" العريضين خرج شعبانان أسودان بشعان.. يلتفان حول عنقه تارة.. ويزحفان على منكيه تارة.. وينزلان بداخل ملبسه تارة أخرى.. شعبانان يبدو أنه لا ذيل لهما.. كأنهما برزا فجأة من داخل منكيه.. وشرع الشعبانين يصدران فحيحا مفترسا ويفتحان أنيابهما.. ولم يحدث أي رد فعل سواء من "النمرود" أو من "شميرام".. لأن كليهما كان قد سقط مغشيًا عليه.. ولم يبق في الغرفة إلا فحيح الشعبانين.

* * *

أرسل "لوسيفر" رسالة إلى النمرود كتب فيها:

" أطعم الأفواه الجائعة كل حين.. لأنها لو لم تجد شيئاً تأكله فلن تجد إلا رأسك" ومنذ ذلك الحين والنمرود قد بدأ يتخذ عادة جديدة.. أصبح يأمر زبانيته كل يوم أن يأتوا له برأسين بشريين.. فقد تعلم أن هاتين الحيتين لا تأكلان سوى رؤوس البشر.. ويفضل أن تكون رؤوساً صغيرة لأطفال.. لأن الحيتين ترفضان أحياناً رؤوس البالغين.. وبدأ زبانيته ينزلون إلى البلاد في كل يوم ليعودوا له برأسين مقطوعين.. ولم يعرف أحد لماذا يصر النمرود على هذا كل يوم.. ولماذا يقتل كل من يتقاعس في تنفيذ هذا الأمر بالذات.. ولم يدرك أحد مآل تلك العباءات العجيبة التي صار "النمرود" يرتديها.. ثم ما هذا الذي يتحرك تحت العباءة.. لم يدرك أحد.. ولم يجزؤ أحد على السؤال.

حاول النمرود أن يذبح الحيتين.. وكانا كلما ذبحهما نبثا على كتفيه في الحال.. أما "سميراميس" فلم تشعر بشيء سوى بالشفقة على حال زوجها معشوقها.. وقد أتت له بالأطباء من الأقاليم كلها.. وكلما رآه طبيب عجز عن استئصال الحيتين.. وكان كلما رآه طبيب وعرف سره قتله.

في الجانب الآخر من المدينة كان هناك رجل حداد يقال له "كاوي".. تعرف في وجهه بأس شديد وقوة.. وتعرف في وجهه حزناً عميقاً.. فقد زاره زبانية "النمرود" منذ أيام وقطعا رأس ولديه الصغيرين أمام عينيهِ.. وأخذوا الرأسين وقدماهما للنمرود.. كان "كاوي" الحداد مسلماً.. متبعاً لدين "إبراهيم".. وقد نزل بين الناس المقهورين المظلومين المقطوعة رؤوس أولادهم وذويهم.. نزل بينهم وأشعل نار الثورة في قلوبهم.. وتسلمت روح الثورة من قرية إلى قرية.. ومن إقليم إلى إقليم.. حتى جمع "كاوي" الحداد تحت رايته خلق كثير يملؤهم الغضب على النمرود.

وفجأة دخل "كاوي" الحداد إلى برج بابل.. أدخله "النمرود" ظنا منه أنه مجرد حداد أتى يستعرض ما تقدر يده أن تصنع..

قال له "كاوي" الحداد بلهجة حازمة لم يعتدها النمرود :

- يا ملك بابل وآشور وعظيمهما.. أسلم تسلم.. وأتركك على ملكك
- وهل من إله غيري يا هذا ؟
- الله رب السماوات والأرضين
- أتقول مثلهم قول "إبراهيم"؟
- "إبراهيم" نبي الله ونحن بدعوته مؤمنين.. وإنا ندعوك لعبادة الله وحده لا شريك له.. فإن أبيت قاتلناك
- هل جئتم؟ أنا "زاهاك" عظيم بابل وآشور وملك الأقاليم السبعة..
- اجمعوا جموعكم إلى ثلاثة أيام وأجمع جموعي.. ولأمسحكنكم وجموعكم عن وجه الأرض حتى لا يتبين لكم أحد أثرا.

وهكذا جمع "كاوي" الحداد جموعه الفاضبة لمدة ثلاثة أيام.. وجمع النمرود جنوده.. ونزل النمرود يقود جنوده بنفسه ونزلت معه زوجته الفارسة "سميراميس".. وكانت جموع النمرود أضعاف جموع "كاوي" الحداد.. ووقف الجيشين أمام بعضهما.. كان كاوي وجنوده ينظرون إلى عظمة جيش النمرود وتسليحه وتنظيمه وتجهيزه.. وينظرون إلى أنفسهم في قلتهم وأسلحتهم المتواضعة.. نظر النمرود و"سميراميس" إلى جيش "كاوي" الحداد في سخرية.. ثم نظرا إلى بعضهما.. دخل في نفوس جنود النمرود الحماسة لتقطيع ذلك الجيش الضعيف إربا حتى لا يُبقوا منهم شيء.. لكن عيون جنود الجيشين توجهت فجأة إلى جهة واحدة ينظرون كلهم إلى شيء ما.. شيء أت من جهة مشرق الشمس..

إن القوة التي بحث عنها النمرود طويلا ولم يجدها قد قررت أن تريه اليوم من آياتها عجبا.. قوة الله جبار السماوات والأرض وعظيمهما.. ففجأة وبدون سابق

إنذار رأى الجمعيين جيشاً آخر قادما من جهة المشرق.. جيش أت من السماء.. جيش ستر من كثرته عين الشمس.. جيش من البعوض..

في البداية لم يفهم أحد من الجيشين شيئا.. مابال هذا البعوض يسد عين الشمس.. وخلال لحظات فقط كان جيش البعوض قد اقترب حتى دخل في مجال الرؤية.. ضيق النمرود عينيه الوسميتين ناظرا إلى السماء محاولاً أن يفهم ماالذي يعنيه هذا.. وتحول البعوض من الطيران الأفقي في السماء إلى الانقضاض الرأسى.. الانقضاض على جيش النمرود الذي اتسعت عيناه وعيون جنوده الذين ساد في تنظيمهم الهرج والتحركات العشوائية التي يحاول فيها كل فرد الالتفات والهرب.. لكن ذلك البعوض لم يكن بعوضاً عادياً.. كان نوعاً من البعوض لم تعرفه الأرض ولا حتى في العصر الجوراسي أيام الديناصورات.. نوع متوحش.. انقضَّ على أفراد جيش النمرود الصارخين الساقطين من على جيادهم والهاربين.. حتى لم يدع في أجسادهم لحمة إلا افترسها.. وافترشت أجسادهم الأرض على بساط من دمائهم.. أما النمرود وزوجته فقد كانا يحثان جيادهما الراكضة على الهرب بعيداً عن تلك المهزلة.. نظر النمرود إلى السماء وقال :

- من أنت يا صاحب القوة؟ أين أنت؟ هل أنت شيطان؟

كان يركض وزوجته ويتبعهما سرب من البعوض.. لكن كان يبدو أن فرسيهما سريعان كفاية للهروب من السرب.. إلا أن بعوضة واحدة قد تمكنت من اللحاق بالنمرود وفعلت شيئاً غريباً جداً؛ فما إن لحقت به حتى دخلت في أحد منخربيه.. ففقد النمرود توازنه صارخاً.. وكاد يقع عن جواده لولا أن أمسكت به "سميراميس" بحركة بارعة جداً.. ونقلته من فرسه إلى فرسها.. واستمرت في الركض بجوادها حتى هربت من سرب البعوض تماماً ودخلت إلى برج بابل.. وأغقت الأبواب وراءها.

* * *

هزّم النمرود في هذه المعركة هزيمة مروّعة.. فقد فيها جيشه الذي خرج معه كاملاً.. ولم يبق سوى جيش بسيط يحمي برج بابل.. أما جيش "كاوي" فلما رأوا تلك المعجزة سجدوا جميعاً شكراً لله.. وأسلم منهم من لم يكن مسلماً.. ثم رفع "كاوي" الحداد رايتة عاليًا وقاد جيشه متوجّهاً ناحية برج بابل.. حيث قصر النمرود وعرشه.

أما النمرود فقد كانت حالته شديدة البؤس.. البعوضة التي دخلت في منخره باتت في مخه.. وكانت كلما تحركت يجن جنونه ولا ينقذه إلا أن يضربه جنوده بالنعال على رأسه ووجهه.. وكانت "سميراميس" تنظر إليه وعيناها تدمعان باكياً من قلة حيلتها.. كانت تود لو تفديه بنفسها.. وتولت مهمة إطعام الشعبانين اللذين على منكبيه في كل يوم حتى لا يجهزا عليه.. أي شيء هذا الذي وضع النمرود نفسه فيه؛ شعبانان وبعوضة متوحشة.. كان متمرداً على قوى لا قبل له بها.. ولا قبل لأي أحدٍ بها.. لكنه عنيد ومتمرد.

وصلت جيوش "كاوي".. وبدأت تحاصر برج بابل.. وجيش النمرود الباقي استبسل في الدفاع عن البرج.. استمر الحصار أربعين يوماً كاملة.. ولم يدر أحدٌ ما الذي يحدث داخل البرج.. كانت عينا النمرود حمراوين ووجهه أحمر من الضرب بالنعال.. وفجأة انكسرت بوابات برج بابل.. ودخل "كاوي" الحداد ووراءه جيشه.. لم يكن شيء ليوقف في طريق "كاوي" الحداد في سعيه.. كان يريد الانتقام لما فعله النمرود في ولديه.. ويبدو أنه قد تم له ما أراد.

* * *

جبل دنباوند.. في ظلمة من الليل كالحة.. كان "كاوي" الحداد يدق أوتادًا حديدية في الجبل.. والنمرود ملقى على الأرض مقيدًا بقربه.. وصوت فحيح الحيتين على منكبيه يصم الأذان.. نظر إليه "كاوي" وقال ساخرًا:

- لم تخبرني أن لديك حيتين على منكبيك يا "زاهاك".. ربما كنت سأعذرك.

لم يرد "زاهاك" بأي كلمة.. وإنما كان يصرخ من وراء كمامة وضعها "كاوي" على فمه.. يصرخ من ألم تحرُّك البعوضة بداخل رأسه.. ولم يمض وقتٌ طويل حتى أنهى "كاوي" عمله الذي كان يعملُه في الجبل.. والتفت إلى النمرود.. وحمله وبدأ يربط حبالاً سميكة في ساعدي النمرود وقدميه.. ثم بدأ يربط كلا منها في وتدٍ من الأوتاد الأربعة التي ثبتها على الجبل.. حتى صار النمرود معلقاً في جبل دنباوند من يديه ورجليه.. والثعبان السوداءوان على منكبيه يتلويان حول رأسه شاعران بالجوع.

فكَّ "كاوي" الحداد كمامة النمرود وقال له :

- بلغ تحياتي إلى صاحب تلك الثعابين.. فهما من سيحظى بشرف رأسك اليوم ولست أنا.

ارتفعت صرخات النمرود بينما يرفع رأسه إلى السماء وكأنه ينادي على شيء أو يحدث أحداً ما.. أما "كاوي" فقد كان قد جمع عدته ورحل.. وبقي النمرود وحده يصرخ.. وعلى سفح الجبل.. كان هناك جمعٌ قد اجتمعوا ينظرون إلى النمرود في صمتٍ مهيبٍ.. جمع من الأطفال ذوي الشعور الطويلة والنظرات الجامدة.. ولم يمض وقتٌ طويلٌ حتى تحرك الحوتان والتفا حول رقبة ثم انقضا على رأسه ينهشان فيها نهشاً متوحشاً دموياً.. وظلا ينهشانها وينهشانها حتى خرجت منها بعوضة طارت بعيداً إلى حيث ما جاءت.. وطوى التاريخ آخر صفحة في حياة رجل تجرَّ في الأرض حتى فاق كل حد.. وكانت نهايته على مستوى تجرُّه... صفحة الملك النمرود.

تمت
